مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران02/ المجلد 12 ع 02
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

المباحثات والنقاشات لعلماء المغرب الأوسط في علم الكلام

Dialogues and discussions of the scholars of the Middle Maghreb in theology

حميدي مصطفى * Hamidi Mustapha Hamidimustapha92@hotmail.com	تاريخ وسيط	جامعة البليدة 2 (الجزائر). مخبر التاريخ والحضارة والجغرافيا التطبيقية
حميدي مليكة Hamidi Malika Hamidi.malika16@yahoo.fr	تاريخ وسيط	جامعة البليدة 2 (الجزائر)

DOI : 10.46315/1714-012-002-011.

الإرسال: 2023/03/26 **القبول:** 2023/04/29 **النشر:** 2023/06/16

ملخص: لقد أنجبت منطقة المغرب الأوسط طبقة عريضة من العلماء والفقهاء والمتكلمين الذين أثروا الحياة العلمية في القطر المغاربي وساهموا في دفع عجلته الفكرية والثقافية، وعليه سنحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على واقع الحركة العلمية والفكرية لمنطقة المغرب الأوسط من خلال رصد النقاشات والمباحثات السجالية لنخب المغرب الأوسط بخصوص المسائل العقائدية المرتبطة أساسا بعلم الكلام، والمهتمة بدراسة ومعرفة الذات الإلهية.

كلمات مفتاحية: علم الكلام؛ المغرب الأوسط؛ المباحثات والنقاشات؛ المنطق؛ الذات الإلهية.

Abstract:

The Middle Maghreb region has given birth to a wide class of scholars and speakers who have enriched the scientific life in the Maghreb country and contributed to advancing its intellectual and cultural wheel. Therefore, in this study we will try to shed light on the reality of the scientific and intellectual movement of the Middle Maghreb region by monitoring the debates and polemical discussions of the Middle Maghreb elites regarding Doctrinal issues related mainly to the science of speech with the study and knowledge of the divine

Keywords : theology ; The Middle Maghreb, discussions ; Logic ; Divine Self.

*****

*- مقدمة

لقد عرفت علوم الأوّلين من فلسفة ومنطق حالا من التّذبذب في التّاريخ الإسلامي، فمنذ مصادفة المسلمين بها خلال أيّام الدّولة العبّاسية فيما يعرف بعصر النّهضة العربية الفكرية المرتبطة بحركة التّرجمة الّتي قام بها المسلمون مع كتب فلاسفة اليونان، ظهرت آراء متباينة تعاطت مع هذه العلوم.

* - الباحث المُرسل: Hamidimustapha92@hotmail.com

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

حيث طغى في بدايتها حالة من الرّفض والإقصاء خاصّة عند طائفة أهل السّنّة والجماعة عكس بعض الطّوائف الّتي أقبلت عليها كالمعتزلة والجهمية وغيرهم من الفرق الّتي رأت في هذه العلوم منفذا للتّحرّر العقلي والإبداع الرّوحي عن قيود النّصوص الشّرعية النّقلية الجامدة حسب منظورها، هذا الأمر أجبر المدرسة السّنّية على التّفاعل مع هذه العلوم لتطوير بنيتها بغرض الدّفاع عن أفكارها الدّينية، وهذا ما أنتج لنا ما يعرف بالعقائد الكلامية السّنّية كالعقيدة الأشعرية المنسوبة لأبي حسن الأشعري القائمة على نصرة النّصوص الشّرعية من الكتاب والسّنّة بالاجتهادات العقلية محاولة بذلك قطع دابر أفكار الفرق الإسلامية المخالفة لها، ومع تمدّد الفكر الأشعري في الأقطار الإسلامية ودخوله إلى بلاد الغرب الإسلامي وتغلغله في أوساط النّخب العلمية، أفرزت لنا هذه المدرسة الكلامية حالة من السّجالات العلمية العقائدية عند علماء المغرب الأوسط، ناقشت مختلف الظّواهر اللّاهوتية الّتي تهتمّ بمعرفة الذّات الإلهية.

ومن هذا الطّرح نطرح التّساؤلات التّالية: ماذا يراد بعلم الكلام؟ وما هي أهمّ النّقاشات والمباحثات الكلامية الّتي ناقشها علماء المغرب الاوسط؟ وما مدى تمكّن نخب المغرب الأوسط من هذا النّوع من العلوم؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية سنعتمد في هذه الدراسة على المنهج التّاريخي التّحليلي لأجل تحقيق القيمة البحثية لهذه الدّراسة، وسنتطرّق فيها إلى تحديد ماهية علم الكلام ثمّ نتوجّه بعدها إلى أهمّ النّقاشات العلمية الكلامية مبرزين فيها تعامل علماء المغرب الأوسط معها مع تبيين مواقفهم وأراءهم بخصوص جزئياتها.

أوّلا/ مفهوم علم الكلام: لغة الكلام هو اسم جنس يطلق على النّطق والقول والحديث كان كثيرا أو قليلا (ابن المنظور، 1994، صفحة 523) أمّا اصطلاحا فيعرّفه ابن خلدون "بأنّه علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلّة العقلية والرّدّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السّلف وأهل السّنّة" (ابن خلدون، 1981، صفحة 580) أمّا عن مادّته وموضوعاته فهذا العلم يستهدف معرفة الذّات الإلهية وصفاتها الجليلة.

ثانيا: مباحثات ونقاشات علماء المغرب الأوسط في علم الكلام:

لقد عرفت منطقة المغرب الأوسط عديدا من المناظرات والمحاورات الفكرية والعلمية عند نخب المغرب الأوسط سواء فيما بينهم أم مع نظرائهم من علماء أقطار الأمّة الإسلامية، وقد شملت هذه النّقاشات مختلف العلوم والفنون من علوم أدبية إلى تفرّعات فقهية، إلّا أنّ أجلّها وأهمّها هي تلك المسائل الأصولية العقائدية الشّائكة والّتي ترجمت على هيئة نقاش كلامي اهتمّ

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

وارتكز على معرفة الذّات الإلهية، وعليه فيما يلي سندرج عددا من هذه المباحثات الكلامية وهي كالتّالي:

1- **مباحثات في مسألة البصروالرّؤية عند الذّات الإلهية:**

أشارت بعض المصادر التّاريخية إلى وقوع مناظرة بين الإمامين المتكلّمين التّلمسانيين الإمام محمد بن يوسف السنوسي(ت895ه) والإمام أحمد بن محمد بن زكري(ت899ه) في مسألة كلامية معقّدة أثارت حبر العلماء والمتكلّمين من مختلف طوائف الأمّة الإسلامية، وهي متعلّقة بقدرة الله عزّ وجلّ في رؤية المعدوم، إذ يرى جمهور المتكلّمين من أهل السّنّة أنّ الله عزّ وجلّ له القدرة على الإحاطة والعلم بالمعدوم، لكن رؤيته أو سمعه غير وارد لتحقّق الامتناع، وحجّتهم في ذلك أنّ الشّيء قبل وجوده ليس بشيء أصلا (ابن تيمية، جامع المسائل، 2019، صفحة 402).

وهذا رأي طبقة جليلة من علماء المغرب الأوسط، بينما ترى بعض الفرق الإسلامية الموسومة بالابتداع بجواز رؤية المعدوم. والحاصل أنّ الإمام السنوسي لمّح في هذه القضيّة إلى رأي يبدو للوهلة الأولى أنّه يخالف أقوال المتكلّمين من أهل السّنّة، قال في ذلك" وإذا شهدت الحوادث كلّها بعلم الله تعالى بها، لزم أن يكون علمه تعالى غير قاصر عليها، بل هو عامّ لكلّ ممكن وجد أو لا" (السنوسي، 1994، صفحة 228).

إنّ مثل هذه الأقوال فهمت عند الكثيرين من المعاصرين من أمثال محمد بن عبد الكريم المغيلي(ت909ه) وابن زكري بأنّها مقولة بدعية تقوم على فكرة جواز رؤية المعدوم، ممّا أشعل السّاحة السّجالية في باب علم الكلام خاصّة بين السنوسي وابن زكري، إذ اتهم هذا الأخير مزاعم السنوسي بأنّها محض افتراءات وتخليط وتهاتر، ليردّ عليه السنوسي بوصف غريمه بالمغرور وبمحبّ الرّياسة وغيرها من ألقاب (اليوسي، 2016، صفحة 184).

وفي سياق المسألة ذاتها أشارت المصادر التّاريخية إلى مراسلة جرت بين طلبة مازونة وعدد من فقهاء المغرب الأوسط حول مسألة في علم الكلام استشكلت عليهم مع مدرّسهم الّذي اختلف معهم، ذكر فيها أنّ مدرّسهم قال مقولة أثارت انتباه الطّلبة وذلك أنّه قال إنّ الله رأى أشخاصنا قبل وجودنا، وسمع أصواتنا في الأزل ونحن عين العدم، فاعترض عليه الطّلبة، وردّوا عليه قائلين: أليس السّمع والبصر لا يتعلّقان إلّا بموجود في الأزل إلا الله وصفة ذاته؟، فتمسّك المدرّس بقوله واستمرّ عليه، فقالوا له: لعلّك ترى أنّ ذلك معنى راجع إلى العلم كما تقول المعتزلة والقاضي في أقواله؟ فردّ عليهم أنّه لم يرد ذلك المعنى، وهنا استشكل طلبة مازونة

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

ادّعاءات المدرّس، ولاحظوا الخلط والغلط في أقواله وبعثوا للفقهاء لغرض النّظر في المسألة (الونشريسي، 1981، صفحة 345)

واستكمالا لهذا النّقاش العلمي الكلامي وصلت رسائل طلبة مازونة إلى فقهاء المغرب الأوسط وأعطى كلّ فقيه رأيه في المسألة، وهنا نستعرض بعض هذه المواقف:

-أ-**موقف الفقيه العقباني(ت811هـ):** تفاعل الفقيه سعيد العقباني من مشايخ تلمسان مع مراسلة طلبة مازونة، إذ أقرّهم على صحّة كلامهم مع تخطيء رأي المدرّس موضّحا أهمّ الأخطاء الّتي وقع فيها، حيث اعتبر أنّ المُدرّس المازوني أخلط بين الصّفتين – البصر والرّؤية- خاصّة إن علمنا أنّ المفردات والكلمات في علم الكلام لها دلالاتها ومآلاتها فأيّ تغيير في اللّفظ أو الكلمة يؤدّي إلى خلل كبير في المعنى، ولغرض توضيح الفرق بين لفظ البصر ولفظ الرؤية أعطى الفقيه العقباني مثالا قويا يدعّم حجّته في اختلاف اللّفظين قال" فلو أنّ رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى اجتمعا في ظلمة فإنّهما حينئذ يكونان مستويين في انعدام وصف الرّؤية عنهما، ومختلفين في اتّصاف أحدهما بأنّه بصير والآخر بأنّه أعمى وإن كانا لا يريان حينئذ شيئا" (الونشريسي، 1981، صفحة 346).

وتوضيحا لهذا المثال: وجه الاختلاف هنا أنّ البصير لا يمكنه الرّؤية لانعدام الضّوء عكس الأعمى لا يرى لفقدانه القدرة على الرّؤية، وعليه يرى الفقيه ومعه جمهور أهل السّنّة والجماعة من المتكلّمين أنّ صفة البصر مثبتة لله عزّ وجلّ وهو متّصف بالبصر في الأزل ولم تكن معها رؤية شيء من الحوادث لفقد شرط الرّؤية وهو الوجود المرئي وإنّما يراها حين خلقها وإيجادها، عكس تماما ما ذكره المدرّس المازوني.

-ب **موقف أبي عبد الله ابن مرزوق**(ت842هـ): كذلك كان الفقيه ابن مرزوق التّلمساني الشّهير بالحفيد من بين المتفاعلين مع هذا النّقاش العلمي الكلامي، فقد أجاب سائليه وحلّ هذه المسألة وكان بعض نصّ جوابه " تصفّحت وفّقك الله سؤالك وتحسّرت عند مطالعته لما نالك، وقاني الله وإيّاك شرّ البدع ...فلا يقال إنّ الله رأى أشخاصنا في الأزل أو سمع أصواتنا فيه لتخلّف شرط ذلك بعدم وجودنا" (الونشريسي، 1981، صفحة 346)

بعدها أوضح الفقيه أصل هذه الأقوال وجذورها الكلامية، كما أنّه أصّل لما قاله المُدرّس المازوني وعدّ أنّ هذا الكلام اختصّت به بعض فرق المعتزلة كالبهشمية، حيث ترى هذه الفرقة بجواز رؤية المعدوم، وهذا ما ينافي عقيدة أهل السّنّة والجماعة، كما أشار ابن مرزوق إلى عدد من آراء علماء السّنّة المتكلّمين الّذين وضعوا القاعدة الثّابتة في هذا الباب وهنا استشهد بقول أبي القاسم النّيسابوري(ت406هـ) في شرح الإرشاد "اتّفق أهل الحقّ على أنّ كلّ

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

موجود يجوز أن يرى ما نصّه وقد اتّفق الأصحاب على أنّ المعدوم يستحيل أن يرى، ولم يصر إلى تجويز رؤية المعدوم أحد إلّا السّالمية" (الونشريسي، 1981، صفحة 347)، أي إنّ أهل السّنّة والجماعة لها رأي واحد في هذه المسألة وهي ارتباط الرّؤية بالوجود المرئي إلّا جماعة السالمية المحسوبين على أهل السّنّة لكنّ آراءهم ضعيفة لا تزاحم آراء جمهور المتكلّمين من أهل السّنّة (ابن تيمية، 2019، صفحة 402).

وبعد هذا الشّرح والاسترسال في أقوال علماء الكلام أوضح الشّيخ ابن مرزوق أنّ المُدرّس المازوني أخطأ وأخلط في معنيي الرّؤية والبصر كما ذكرنا سالفا، وبيّن أنّ استشهاده بقول القاضي مجانب للصّواب حيث إنّه افترض أنّ القاضي المشار إليه في المسألة قد يكون عبد الجبار(ت415هـ) وهو من المعتزلة لا يؤخذ بقوله، وعليه أسقط الفقيه ابن مرزوق جميع ادّعاءات المُدرّس المازوني وبيّن ضعف أقواله واستدلالاته (الونشريسي، 1981، صفحة 352).

•ج **موقف الفقيه عيسى الغبريني(ت816هـ):** تميّز موقف قاضي تونس ذو الأصول البجائيّة عيسى الغبريني عن سابقيه أنّه كان أكثر شدّة وقسوة في الرّدّ على المُدرّس المازوني، فبعدما أوضح وشرح مسألة الرّؤية والبصر في علم الكلام -وقد سبق لنا أن أوضحناها مع موقف الفقهين-، اتّجه إلى نقد هذا المدرّس المازوني حاسبا إيّاه من أهل الجهل غير القادرين على فهم هذا النّوع من العلوم حيث قال" ولعلّه وقع فيه بسبب كلام رآه في بعض الكتب...وأظنّه أنّه لم يفهم معنى التعلّق الأزلي، وهي مسألة صعبة معلوم ما فيها للعلماء ...إنّما ينبغي أن يكون للخواصّ المشاركين في العلوم الّذين لهم المادّة والفهم، لا للعوامّ" (الونشريسي، 1981، الصفحات 352-353).

ومفاد قوله أنّ هذه المسائل تناقش مع نخبة النّخبة من العلماء وليس كلّ من هبّ ودبّ ولا يجوز للمدرّس أن يناقشها مع العوامّ لأنّ فيها من الكلام ما يوجب التّشويش، أمّا عن مقولته فعدّها من مقولات أهل الضّلال ويترتّب عليها زواجر كهجرانه ومعاداته مع إلغاء إمامته وشهادته ومصاحبته، بل تعدّاه بالدّعوة إلى تأديبه ضربا وسجنا معتبرا إيّاه أنّه من أهل الفرق المارقة عن أهل السّنّة والجماعة (الونشريسي، 1981، صفحة 353)

-2 مباحثات علمية بين أبي زكرياء المهدوي والشّريف التّلمساني في المنطق وعلم الكلام:

كذلك من المباحثات الّتي أثيرت في الحقل الكلامي هي تلك المراسلة الّتي أوردها الونشريسي والّتي تدخل ضمن علوم الفلسفة والمنطق والكلام، إذ وجّه فقيه الدّيار المصرية والتّونسية أبو زكرياء ابن موسى المهدوي(ق8هـ) من مدينة توزر التّونسية مجموعة إشكالات واستفسارات إلى

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

فقيه الدّيار المغاربية الشّيخ الشّريف التّلمساني(ت771هـ) وفحواها يتركّز على أربع نقاط وقع فيها الخلاف وهي:

-أ مسألة الموجب والسّالب:

وهي من أعقد المسائل اختلف فيها المناطقة وتعدّدت شروحاتهم وأقوالهم وبيان ديباجتها هي الموجبة تستدعي وجود الموضوع محقّقا في الخارجية، ومقدّرا في الحقيقة، والسّالبة لا تستدعيه وهنا استصوب الفقيه التّلمساني بعض آراء الشّيخ أبي زكرياء المهدوي في هذه المسألة وصحّح بعضها في مراسلته، موضّحا شروط بناء هذه المسألة المنطقية قائلا " وتحقيق الكلام في الموضوع بالنّسبة إلى الإيجاب والسّلب في القضيّة أن تعلم أوّلا بثبوت المحمول للموضوع أو بسلبه عند مغاير لهما، أي لثبوت السّلب، وإلّا لكان كلّ خبر صادقا" (الونشريسي، 1981، صفحة 164). ويراد بالقضيّة الموجبة عند أهل المنطق هو ثبوت الحكم فيها صفة الى الموضوع كلّه أو بعضه – أي أنّ القضيّة الموجبة تنقسم إلى قسمين: الأولى كلّية موجبة مثال: كلّ الشّباب مناضل، قسم ثانية جزئية موجبة مثال: بعض الشّباب مناضل، أمّا القضيّة السّالبة فيراد بها نفي الحكم فيها صفة عن الموضوع وهي كذلك تنقسم إلى قسمين الأولى كلّية سالبة مثال: لا حيوان خالد، قسم ثانية جزئية سالبة مثال: بعض الحيوان ليس مفكّر، (ماهر، 1986، صفحة 42)

كما أشار الفقيه التلمساني إلى العلاقة الزّمانية والعمليّة الذّهنية ومدى تأثيرها في هذه القاعدة المنطقية مستشهدا " وإذا ثبت تغايرهما فقد يتّحدان بالزّمان، كقولنا زيد قائم الآن، فإنّ زمان ثبوت المحمول للموضوع هو زمان الحكم، وقد يختلفان فيه كقولنا زيد قائم غدا ...فإذا تقرّر هذا فاعلم أنّ الحكم بثبوت المحمول للموضوع أو بسلبه عنه يستدعي وجود الموضوع في الذّهن بوجه ما زمن الحكم" (الونشريسي، 1981، صفحة 164) ففي المثال السّابق في قوله زيد قائم الآن فهي قضيّة موجبة لأنّ الموضوع-زيد- يتوافق مع زمن المحمول – قائم- أي في الوقت الحالي وعليه فهي موجبة لترسّخها في الذّهن وفي الواقع – الحقيقة – معا.

أمّا قوله زيد قائم غدا فهي قضيّة سالبة لأنّ الموضوع - زيد- لا يتوافق مع المحمول –قائم غدا- حيث نلاحظ تناقضا في الزّمن فقائم تدلّ على الزّمن الحالي وغدا تدلّ على المستقبل وعليه هي مثبتة ذهنيا دون الواقع – حقيقة- حسب رأيه، وهذا الرّأي يدعّمه المناطقة المتأخّرون حيث يرون أنّ السّالبة المحمولة قضيّة ذهنيّة (التهانوي، 1996، صفحة 967) وهذا يدلّ على تبحّر الشّريف التّلمساني في علوم المنطق المستصعبة على كبار فقهاء عصره.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

- ب مسألة في علم الفلسفة والكلام -قضيّة قدم العالم-:

وممّا استشكل على الفقيه أبي زكرياء وطرحه على الشّيخ شريف التّلمساني بغرض تبسيطه قول الفلاسفة في قضيّة أزليّة العالم وقدمه وبيان ديباجتها "لو امتنع وجوده أوّلا لكان امتناعه لذاته أو لغيره..." (الونشريسي، 1981، صفحة 166)

وهنا شرح الفقيه التّلمساني شقّي هذه المسألة عن طريق التّفريق بين مسألة إمكان الأزليّة وأزليّة الإمكان، وهذه الجزئية بالذّات كانت قد أسالت حبر الفلاسفة والمتكلّمين وتعدّ من أقدم القضايا الفلسفية الشّائكة منذ زمن فلاسفة اليونان، متسبّبة في نزاع فكري محتدم بين الفلاسفة والمتكلّمين وصل إلى حدّ تكفير الكثير من فلاسفة المسلمين، وجوهر الخلاف أنّ علماء الكلام وعلى رأسهم أبو حامد الغزالي يرون أنّ المفهوم الدّيني المبني على حدوث العالم من العدم، في المقابل يرى الفلاسفة من أمثال ابن سينا أنّ مسألة أزلية العالم مرتبطة بأنّ العالم صدر عن الله بدون تأخّر زمني وأنّ تقدّم الله على العالم تقدّم بالذّات والشّرف لا بالزّمان أي إقرار بأزليّة العالم (الدبابسة، 2008، صفحة 23).

وبغضّ النّظر عن أيّهما الأصحّ والأرجح حيث إنّ هذه القضيّة فلسفية بحتة لا تعني دراستنا إذ ما يهمّنا في هذه المسألة الشّائكة هو موقف الشّريف التّلمساني وطريقته لمعالجة هذه القضية، حيث إنّه ربط هذه الجزئية –إمكان الأزلية وأزلية الإمكان-بالحادث إذ أشار معلّلا " وذلك أنّ الحادث اليومي بل كلّ حادث فهو بالضّرورة مسبوق بالعدم نفسه...وكونه حادثا يقتضيها فكلّ حادث أزلي الإمكان، ومن جهة هو حادث ممتنع الأزلية" (التلمساني، 1998، صفحة 214)، أي إنّ معيار قدم العالم قائم بوجود الحادث فإن وجد الحادث انتفت أزليته حيث إنّه مسبوق بالعدم، وعليه خلص الشّيخ الشريف التلمساني إلى عدم أزليّة العالم وهذا رأي أغلب الفقهاء والأصوليين.

-ج- مسألة إبطال التّسلسل لمعرفة وجود الله:

كذلك استفسر الفقيه أبو زكرياء الشّيخ الشريف التلمساني في مسألة قول المتكلّمين " إنّ العلم بوجوده تعالى يتوقّف على إبطال التّسلسل في الأسباب، وما ذكروه في إبطاله لا يتمّ " (الونشريسي، 1981، صفحة 167) والتّسلسل عند أهل الكلام يراد به ترتيب أمور غير متناهية، وقد أطلق عليه بالتّسلسل نسبة للسّلسلة إذ هي مكوّنة من حلقات وهي الحوادث عند أهل النّظر أمّا طرفها فهو الماضي والمستقبل (الكواري، 2001، صفحة 64)، وعليه قد ذهب الشّريف التّلمساني إلى فكرة إبطال التّسلسل بقوله " هذا الشّكّ قد أشار إليه ناصر الدّين وحلّه أن تعلم أنّ علل الشّيء منها ما يحتاج إليه الشّيء في ماهيته وهي علل الوجود، ثمّ

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

علل إمّا فاعلة للوجود وهي المفيدة له، وإمّا قابلة له وهي المستفيدة...إلخ " (الونشريسي، 1981، صفحة 168) بمعنى أنّ مسألة التّسلسل هي عبارة عن اجتماع سلسلة من العلل والمعلولات المترتّبة طوليا إلى غير نهاية، وهي في الحقيقة باطلة بداهة، وقد أعطى الفقيه التّلمساني مثالا موضّحا هذه الديباجة قال" فالجملة مؤلّفة من الآحاد كلّ واحد منها ممكن، يستحيل أن يكون شيئا ...وأمّا الجملة بعضها واجب فلا يمتنع أن يكون ذلك البعض مفيدا لوجود...فظهر الفرق بين الجملتين" (الونشريسي، 1981، صفحة 168)

وتعقيبا وتبسيطا لهذا المثال أي إنّ الجملة المؤلّفة من آحاد –أجزاء وكلمات-لا يتمّ معناها إلّا بتجميع أجزائها وفي الوقت ذاته يمكن لبعض الجمل المشكّلة من آحاد – أجزاء وكلمات- أساسية أن تتمّ المعنى دون تجميع كامل الأجزاء –الكلمات-، وعليه معرفة الوجود الإلهي مرتبط بإبطال التّسلسل اللّانهائي وهذا رأي جمهور العلماء المسلمين.

-د مباحثة في صفة كلام الله عزّوجلّ:

كذلك ممّا ناقشه الفقيهين مسألة اختلف فيها الفقهاء والمتكلّمون باختلاف مذاهبهم بخصوص صفة كلام الله حيث يرى المعتزلة أنّ كلام الله -القرآن-مخلوق، فيما يرى أهل السّنّة والجماعة إثبات صفة الكلام لله عزّ وجلّ لكن اختلفوا في إثبات الكلام النّفسي، والمراد بالكلام النّفسي هو قدرة الله على التّكلّم متى شاء بما شاء، وقد اختلف أهل الاصطلاح في تسميته بذلك، فذهب الأشعري إلى تسميته بالكلام النّفسي وأطلق عليه الفقيه ابن تيمية مصطلح النّوع وفي هذا اصطلاح خلاف كبير عند جموع الفقهاء والمتكلّمين إذ يرى الأشاعرة والماتردية أنّه مثبت وقد تبعهم في هذا جمهور العلماء من الأصوليين والمتكلّمين فيما ينكره بعض العلماء كابن تيمية وبعض فقهاء الحنابلة (ابن تيمية، التسعينية، 1999، صفحة 962).

كما أنّ هذه المسألة تطرّق إليها ابن الحاجب بقوله "الأدلّة وهي راجعة إلى الكلام النّفسي وهو نسبة بين مفردين قائمة بالمتكلّم والعلم بالنّسبة ضروري" (الونشريسي، 1981، صفحة 169) وقد اعترض الفقيه أبو زكرياء في مراسلته على بعض ما ذكره ابن الحاجب مستفسرا الفقيه التّلمساني في بعض نقاط هذه المسألة الكلامية، حيث أجابه الفقيه التّلمساني مؤيّدا بعض اعتراضاته مع استصوابها، كما استنكر رأي المعتزلة في هذه المسألة قال " ومن هنا وهمت المعتزلة فاعتقدوا أنّ الله يوصف بالكلام من حيث الكلام مخلوق له لا من حيث الكلام صفة قائمة به" (الونشريسي، 1981، صفحة 169) والواضح أنّ رأيه يؤيّد موقف جمهور علماء السّنّة وهو أنّ كلام الله غير مخلوق.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

نستنتج من خلال هذه المراسلة العلمية الّتي شملت مختلف العلوم العقليّة تبحّر الشّريف التّلمساني في علوم المنطق والفلسفة والكلام والغوص في أبجديات هذه الفنون مع معرفة الغريب منها والتّدقيق فيها والكشف عن أصغر جزئياتها الّتي استعصت على كبار العلماء وهذا يدلّ على علوّ قدمه في العلم ومكانته المعرفية خلال تلك الفترة الزّمنية.

3- مسألة القدرة الإلهية بين الممكن والمحال:

كذلك جاء في نوازل الونشريسي عدد من الأبحاث الكلامية الّتي أشارت إلى مسألة عقائدية حسّاسة متعلّقة بحدود القدرة الإلهية، إذ أورد الونشريسي في سياق إشارته لسؤال طرح على الشّيخ أبي عبد الله الشّريف ابن الفقيه الشّريف التّلمساني من طرف فقهاء بجاية ومفاد هذا السّؤال هو أنّ رجلين تناظرا بخصوص قول المتكلّمين – إنّ القدرة لا تتعلّق بالمحال لذاته كالجمع بين الضّدّين - إذ يرى أحد الرّجلين أن الله لا يقدر على الجمع بينهما ولو أراد ذلك، زاعما ومحتجّا بأن الله لو كان قادرا على ذلك لكان قادرا على أن يخلق إلها مثله، معتبرا أنّ هذا يدخل في المحال، بينما يرى الرّجل الآخر أنّ قدرة الله تتعدّى المحال وأنّه لو أراد المولى عز وجل أن يجمع بين أيّ ضدّين لقدر على ذلك (الونشريسي، 1981، صفحة 233).

وهنا أجاب أبو عبد الله الشّريف التّلمساني على هذه المسألة بتحديد معنى كلّ من القدرة والمحال، معتبرا أنّ تحديد مفهوم هذين المصطلحين يسهم في فهم هذه الإشكالية فبحسبه أنّ المحال هو الشّيء غير المعدوم وغير القابل للوجود، بينما الأشياء القابلة للعدم والقابلة للوجود تدخل في نطاق الممكن، أمّا عن القدرة فقد عرّفها بأنّها صفة وجودية قادرة على إيجاد، مستدلّا بقول كلّ من سيف الدّين الآمدي(ت631هـ) والشّهرستاني(ت548هـ)، وبهذين التّعريفين ربط الفقيه التلمساني إجابته معتمدا في ذلك على الاستدلال المنطقي قال" لا شيء من المحال يتأتّى إيجاده، ومتعلّق القدرة يتأتّى إيجاده، فبيان الصّغرى من تفسير المحال، وبيان الكبرى من تفسير القدرة" (الونشريسي، 1981، صفحة 234) وبذلك خلص الفقيه إلى أنّ المحال لا تتعلّق به قدرة، كما أنّ الفقيه التّلمساني بين أنّ هذا لا يعني ولا يستلزم النّقص أو القصور في قدرة الله عزّ وجلّ موضّحا أنّ كمال كلّ صفة متعلّقة بما يصحّ التّعلّق بها، وعدم التّعلّق بغيره لا ينافي كمالها، مستشهدا بصفة البصر في الذّات الإلهية إذ أنّ كمال البصر مرتبط بكلّ المبصرات، وأنّ عدم ارتباط هذه الصّفة بالأصوات ليس نقصا فيها، والأمر ذاته ينطبق على صفة السّمع، وفي آخر جوابه نوّه الفقيه إلى ضرورة التّأدّب في طرح هذا النّوع من الأسئلة حتّى لا تؤوّل أو تفهم على أنّها انتقاص من الذّات الإلهية معتبرا أنّه لا يجوز بأيّ حال من الأحوال بأن يقال أنّ الله عزّ وجلّ غير قادر على محال، لأنّها تدخل ضمن الالفاظ الموهمة بتعجيز الله عزّ وجلّ وهذا سوء أدب وهو مرفوض، والأولى انتقاء الكلمات وإدراجها وفق مذهب المتكلّمين ممّا يضمن التّوقير والتّعظيم في حقّ المولى عزّ وجلّ (الونشريسي، 1981، صفحة 235).

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

***- خاتمة:**

يمكن القول بناء على ما سبق أنّ علماء ونخب المغرب الأوسط كان لهم الباع الأكبر في الخوض في المسائل الكلامية التي استعصت على الكثير من علماء أقطار الأمّة الإسلامية، إذ أبانت هذه النّقاشات على معرفتهم الدّقيقة بأقوال المتكلّمين وآرائهم في المسائل العقائدية المتعلّقة بالذّات الإلهية، إنّ إقبال هذه النّخب على هذه العلوم لم يكن وليد العبث بل إنّه دليل صريح على سعيها الحثيث في الحفاظ على سلامة العقيدة الإسلامية السّنّية والدّفاع عنها من خطر الانحراف العقائدي الّتي كانت تروّج له الفرق الإسلامية المخالف لأهل السّنّة كالمعتزلة والجهمية والقدرية وغيرها من الفرق المناوئة، إذ كان هذا الأمر الطّارئ الحافز الأكبر لنخب المغرب الأوسط في التّفاعل والتّعاطي مع هذا النّوع من العلوم، كذلك أظهرت هذه النّخب قدرتها وملكتها العلمية في التّعاطي مع العلوم اليونانية كعلم المنطق والّذي تعاملت معه هذه النّخب على أنّه علم نافع عكس بعض النّخب المشرقية الّتي اعتبرته منبرا كفريا لا يصحّ التّعويل عليه، إنّ علماء المغرب الأوسط استطاعوا ترويض هذا العلم واستفادوا منه عن طريق مناقشة بعض عناصره – قضيّة السّالب والموجب - وتشغيله في الحقل العقائدي والفقهي كوسيلة استدلالية تعمل على تبسيط المسائل والقضايا الشّائكة كانت نقلية أو عقلية.

****

- قائمة المصادروالمراجع:

- ابن القاضي التهانوي. (1996). *كشاف اصطلاح الفنون والعلوم* (المجلد 1). بيروت: مكتبة لبنان.
- أبو العباس ابن تيمية. (1999). *التسعينية* (المجلد 3). الرياض: مكتبة المعارف.
- أبو العباس ابن تيمية. (2019). *جامع المسائل* (المجلد 4). الرياض: دار عطاءات العلم.
- أبو العباس الونشريسي. (1981). *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب* (المجلد 12). المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- أبو الفضل، ابن المنظور. (1994). *لسان العرب* (المجلد 12). بيروت: دار الصادر.
- ابو المواهب اليوسي. (2016). *حواشي اليوسي على شرح كبرى السنوسي* (المجلد 3). المغرب: جامعة الحسن الثاني.
- أحمد حامد الدبابسة. (2008). دور مفهوم الإمكان في إثبات أزلية العالم عند ابن رشد. *المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية*، 23.
- الشريف التلمساني. (1998). *مفتاح الوصول الى بناء الفروع على الأصول*. لبنان: مؤسسة الريان.
- عبد الرحمان، ابن خلدون. (1981). *العبر ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر* (المجلد 1). بيروت: دار الفكر.
- عبد القادر ماهر. (1986). *محاضرات في علم المنطق*. مصر: دار المعرفة الجامعية.
- كاملة، الكواري. (2001). *قدم العالم وتسلسل الحوادث*. الأردن: دار الأسامة لنشر والتوزيع.
- محمد بن يوسف السنوسي. (1994). *المنهج السديد في شرح كفاية المريد* . الجزائر: دار الهدى.